تواصل (المدى) نشر هذا الكتاب الذي يقدم صورة عن ذكريات وانطباعات وآراء بول بريمر حول فترة عمله في العراق وتهدف (المدى) عبر ترجمتها ونشرها الكتاب إلى إتاحة الفرصة لقرائها للاطلاع، كما تتيح المجال للباحثين والمحللين وسواهم من المعنيين لمراجعة مادة الكتاب فكرياً ونقدياً.. وبهذا تؤكد (المدى) ان جميع الآراء والمعلومات التي يقدمها بريمر هنا هي تعبير عن وجهة نظره الشخصية التي لا تلتقي مع وجهة نظر (المدى) التي واكبت فترة حكم بريمر وما بعدها بالنقد الصريح المعروف عن الجريدة وعن سياستها الواضحة في هذا المجال.

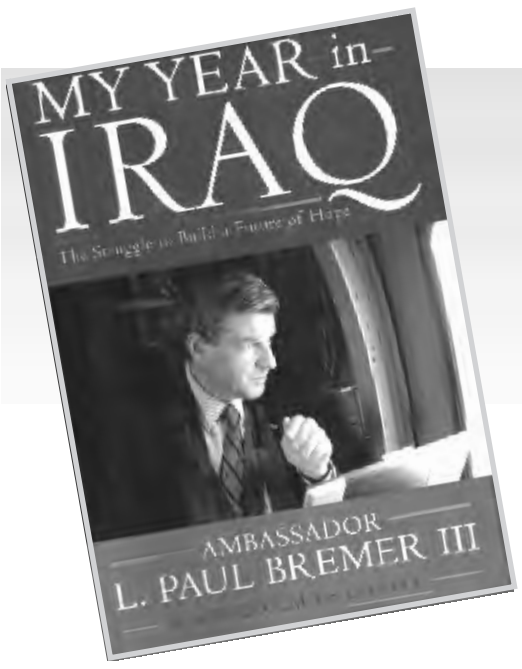

كتاب بول بريمر الصادر حديثاً حول تجربة عمله في العراق

سنتي في العراق

الصراع لبناء مستقبل من أمل

تأليف/ بول بريمر
ترجمة/ د. عابد اسماعيل

(الحلقة الثامنة و العشرون)

أومأتُ، معبراً عن امتناني، لكنني لم أجبه لأنني قرأتُ المزيد مما يدور في ذهنه. نقر بالقلم على صفحة الخطة. "حسنٌ. ما أريد أن أعرفه هو كمية الأموال الإضافية التي يمكن أن نحتاج إليها."

كان نائب الرئيس تشيني، ودون رامسفيلد، وكولن باول، وكوندي رايس، وآندي كارد يراقبونني من وراء الطاولة. في نيسان، كان الكونغرس قد وافق على مليارين ونصف دولار لمساعدة العراق، ولكن هذا المبلغ سيُنفَق في أواسط آب. إن طلب الإدارة لمزيداً من المساعدة المالية، رغم حساسيته سياسياً، بدأ يلوح في الأفق. كان هذا مؤكداً. لكن الآليات المتعلقة بتوقيت وكيفية رفع الطلب لم تكن قد تقررت بعد. والمجهول الأكبر هو المبلغ الذي يمكن أن نحتاجه.

"سيدي الرئيس،" بدأتُ بالقول. "وفقاً للتحليل الأولي لفريقنا في بغداد، نحن نتطلع إلى خمسة مليارات دولار في الحدِ الأدنى." لكنني أضفتُ أن الرقم النهائي يعتمد على المزيد من التحليل من قبلنا، ومن قبل فريق البنك الدولي.

حرك الرئيس كرسيه نحو الوراء. لم يبد أن الرقم يزعجه. كانت ردة فعله الوحيدة قوله، "مندهش لأن الرقم متدن." تذكرتُ تأكيدَ الرئيس في أيار بأن إدارته ستفعل ما بوسعها، وستظل ملتزمة بتقديم المساعدة لتأسيس عراق حر. الآن، أيضاً، أكد لي أننا سنحصل على ما نريد لاستكمال العمل.

"سيدي الرئيس، علينا أيضاً أن نقوم بإجراء يخفف الدين عن العراق. تقدر وزارة الخزانة بأن العراقيين يرزحون تحت ١٢٠ مليار دولار من الديون- ما يزيد بستة أضعاف على معدل الدخل العام. إننا لا نستطيع بكل بساطة أن نرهق الحكومة العراقية بديون صدام الكبيرة. سوف يمثل هذا خطأً آخر يذكر بتعويضات الحرب التي رميت على ألمانيا في فرساي." قبل عشرة أيام، كنتُ قد اقترحتُ على رايس أن تطلب من الرئيس تعيين وزير الخارجية السابق جيمس بيكر للقيام بجهد سياسي دولي يتركز على رفع عبء الديون عن العراق.

كانت المادة الأخيرة على جدول أعمال مجلس الأمن القومي هي مناقشة فيما إذا كان يتوجب على البيت الأبيض ووزارة الخارجية أن يضغطا على الأمم المتحدة لاستصدار قرار آخر عن مجلس الأمن، يطلبُ من عدد من البلدان إرسال وحدات مقاتلة إلى قوى التحالف في العراق.

"لا أعتقد أن هذا ضروري،" قال باول. "من الواضح أن القرار ١٤٨٣ يسمح للدول الأعضاء بأن ترسل قواتها." ثم توقف للحظة، متمعناً أكثر في الموضوع. "من ناحية أخرى، إن قراراً جديداً يمكن أن يساعد الهنود وقلة آخرين على الالتحاق بالركب. السؤال هو ما الثمن الذي يجب أن ندفعه من أجل قرار جديد؟ سوف يحاول الروس أن يلعبوا اللعبة، عبر الحصول على ضمانات لديونهم القائمة، ناهيك عن عقود النفط التي أبرموها مع صدام. سوف يبقى الفرنسيون يسببون لنا إحراجاً كالعادة. لكنني أعتقد أننا نستطيع التعامل مع كل منهما، وبالتالي يمكن الحصول على قرار نظيف. ويمكن أن نطلب من سفرائنا الاجتماع بنظرائهم في نيويورك والعواصم الرئيسية."

"افعل ذلك، يا كولن،" قال الرئيس بوش.

في تلك الظهيرة، وزع المكتب التشريعي في البنتاغون نسخاً من الخطة الاستراتيجية، بصفحاتها السبع والخمسين، إلى جميع أعضاء الكونغرس البالغ عددهم ٥٣٥، وبالرغم من أن كل نائب ومشرع حصل على نسخة، كان العديد من خصوم الرئيس في السنة التالية يجادلون بأن إدارة بوش لم تكن تملك خطةً "أبداً" بشأن احتلال العراق.

"هذا لذيذ، دكتور جعفري،" قلتُ، وأنا أغمس قطعةً من لحم الدجاج الطري والخبز المسطح في صلصة الصحن أمامي.

التوقيت هو الأول من آب، حيث كنتُ ألبي دعوةً من إبراهيم الجعفري في منزله الكائن في بغداد، والذي يلقب بمكتب العاصمة لحزب الدعوة الإسلامي. كان قد استلم الرئاسة الدورية الأولى لمجلس الحكم.

ولأنه يعرف اهتمامي بفن الطبخ، ظلّ الجعفري يعدني لعدة أسابيع بدعوتي إلى وجبة كربلائية خاصة، وفريدة، تسمى "فسنجون"، وهي أكلة فارسية فاخرة يُطهى فيها الدجاج لساعات مع خليط من الرمان، ومسحوق الجوز، وعصير الليمون، والسكر. كانت الوجبة المعروضة أمامنا مثالاً ملموساً للعلاقة، التي تمتد قروناً، بين بلاد الرافدين وبلاد فارس. لاشك أن الزوار الشيعة من الفرس نقلوا هذه، وغيرها من المأكولات اللذيذة، إلى كربلاء والنجف.

ما إن رُفعت الصحون، وقُدمت كؤوس الشاي، انضمتْ إلينا مجموعة من المسؤولين في حزب الدعوة. بعدئذ انطلقت قريحةُ الجعفري، وانسابت أحاديثه ذات النسق الحر، المترافقة مع حركة دائمة لليد، حول الكيفية التي يجب على المجلس أن يؤدي فيها عملَه.

"قبل كلّ شيء،" قال وهو يحرّكُ كرسيه بحماس، "يجب أن نساعد المحرومين من شعب العراق ... والفقراء الجائعين، وعائلات الشهداء ..."

هؤلاء هم مئات الآلاف من الرّجال، وغالبيتهم من الشّيعة، الذين ماتوا خلال حرب صدّام مع إيران، التي دامت ثماني سنوات.

"لقد دمّر صدّام عائلات كثيرة تركت خلفها مئات اليتامى. سعادة السفير، إنّ مساعدتهم تمثّل أولوية بالنسبة لنا."

وقد تطرّق الجعفري إلى الموضوع وهو يؤدّي دورين، دور الطبيب ودور زعيم شيعي. إذ لطالما حاول العراقيون الشيعة أن يحموا أنفسهم من القمع، من خلال تجنب السياسة، وخلع معطف الصدقة على المؤمنين. ولكن فيما يتعلّق بحزب الدعوه، فإن أعمال القمع التي مارسها صدام، كانت قد خلّفت عدداً مخيفاً من الضحايا، وبالتالي كان من الطبيعي أن يسخّر الجعفري موارد قيمة لدعم هؤلاء الأتباع.

"أنا أفهم تماماً، دكتور،" قلتُ، محاولاً بلطف أن ألفتَ انتباهه إلى حلول عملية. "ولكن علينا أن نحدد المشكلة بشكل أكثر دقة، ومن ثمّ نقترح حلولاً ملموسة."

"ثمة الكثير مما يجب فعله، ولعدد كبير من الناس،" قال، فيما كان صوته يفيض بالعاطفة.

لم يكن هذا أداءً مشجعاً. كنا نحتاج إلى خطوات عملية، وليس إلى عواطف جامحة.

"من هم بالضبط أولئك الذين تريد أن تساعدهم؟" سألتُ. "أيّ نظام سوف تعتمد في تقييم طالبي المساعدة؟ من سيقوم بذلك الواجب؟ ما حجم التمويل الذي تنوي أن تقدّمه إلى هؤلاء الناس، وما هي المدة؟"

بدا الجعفري وزملاؤه غير مرتاحين. لم تكن لديهم أجوبة.

"دكتور جعفري،" قلتُ. "لماذا لا يعيّنُ مجلس الحكم شخصاً للعمل مع خبرائنا في التحالف؟ حين يكون بمقدورهم تحديد حجم الحاجة، يمكنهم أن يقدروا التكلفة، وبالتالي سوف يقدمون اقتراحاتهم إلى كامل المجلس، للبت في البرامج التي يجب أن تُعطى الأولوية. إننا ببساطة لا نملك الأموال للإنفاق على كل شيء. واستناداً إلى ما نعرفه، إننا نتوقع الإفلاس مع بداية العام القادم. إذن، ثمة الكثير من الحلول الوسط. هل تضع نظام تقاعد سخياً لمئات الآلاف من الأرامل، أو هل تريد أن تصلح شبكة الكهرباء العامة؟"

بدا الجعفري ورجاله مرتبكين. إن حكم بلد ما عمل معقد. إن حمامات الماء البارد ليست بعيدة، قلتُ في نفسي. ماذا كان يمكن أن يحدث، لو أن حكومة الولايات المتحدة سلّمت العراق إلى جماعة المنفى، كما كان يريد البعض في واشنطن.

في أوائل آب، كنت قد بدأت أشعرُ بالامتعاض جراء حالة اللامبالاة التي أصابت مجلس الحكم. في يوم الاثنين، ٤ آب، (والذي كنتُ قد علمتُ من أحد أعضاء فريقي السادسين أنه كان اليوم الثامن والخمسين، على التوالي، الذي تتجاوز فيه الحرارة مائة درجة مئوية فرنهايت، عند التاسعة صباحاً)، قابلتهم لمناقشة تفاصيل ميزانية عام ٢٠٠٣.

وقبل أن نتصدى لاحتمالات الميزانية، سألني أحد أعضاء المجلس، هو موفق الربيعي، المسؤول الشيعي الذي تلقى تعليمه في بريطانيا، في مجال طب الأعصاب، سؤالاً خبيثاً.

"سعادة السفير بريمر،" قال، "تفيض الصحف العراقية بأنباء تقول بأنك تخطط للزواج من عدد من النساء العراقيات."

كنتُ قد سمعت عن هذه الشائعات من فريق عملي، لكنني ظننتُ أنها تهدف إلى ممارسة الضغط علي.

"وبالتالي، سعادة السفير بريمر،" قال الربيعي مبتسماً، "يريد المجلس أن يعرف فيما إذا كان هذا صحيحاً."

رددتُ ابتسامتَه. "كلاّ، ليس صحيحاً،" أجبتُه، "لأنني في الوقت الراهن أملكُ الحدّ الأقصى من الزوجات الذي يسمح به ديني."

غير أن هذه الخفّة لم تدم طويلاً. حين أكملنا مراجعة الميزانية، التفتُ إلى شغلي الرئيسي.

قبل أن يتشكل مجلس الحكم، طلبتُ من فريق عملي تحضير قائمة طويلة بإنجازات يمكن أن تشكل "فوزاً مبكراً" للمجلس. وهذه قرارات يمكنهم أن يعلنوا عنها سريعاً لكي يُظهروا للشعب العراقي بأن مجلس الحكم يقوم حقاً بمسؤولياته. على سبيل المثال، اقترحتُ أن "يطلبوا" علانيةً من التحالف إعادة توليد الكهرباء، ورفعها إلى مستويات ما قبل الحرب، في تشرين الأول، وأن يعتمدوا أيضاً سبلاً عاجلة للتعامل مع ظاهرة البطالة. وبما أن هذه الخطط جاهزة، وفي متناول أيدينا، ستكون هذه عملية رابحة بالتأكيد، وسوف يحصد مجلس الحكم كلّ الفضل، أمام الناس، لأنه طالب التحالف بها، واستجبنا نحن كسلطة تحالف مؤقتة. خلال أول اجتماع لي، أوضحت، بشكل لا يدعو للشك، بأننا نريد لمجلس الحكم أن ينجح بطريقة يفهمها عامة الناس. غير أنّ مجلس الحكم لم يحرّك ساكناً.

ذكّرتهم هذا اليوم بأن المجلس لم يستجب لمذكّرة كنت قد أرسلتها إليهم قبل أسابيع، أطلبُ فيها أن يقدموا المساعدة في إطلاق برنامج واسع يساهم بتسهيل اندماج ضباط الجيش السابق في المجتمع العراقي. هنا أيضاً قوبل اقتراحنا بالصمت المطبق.

ظلّ مجلس الحكم يعاني من قلة التنظيم، فاشلاً في تلبية هذه المطالب، المضمون نجاحها، والتي اقترحتها سلطة التحالف المؤقتة.

قلتُ لفرانسي في إحدى رسائلي الإلكترونية إن الأمر يشبه وضع "كرة الغولف في أسهل وضع أمام لاعبين لا يجيدون اللعبة في أسهل وضع."

كانت فاعلية مجلس الحكم قد تعثّرت، منذ أوّل يوم إلى آخر يوم، بسبب عادات عمل متراخية. كانوا قد أسّسوا لنسق من الاجتماعات من الاثنين إلى الخميس، وغالباً في أوقات الصباح، ولكنها لم تكن تبدأ قبل العاشرة صباحاً. وبعد أن يكرّموا أنفسهم بغداء فاخر، ينصرف الأعضاء إلى نشاطات أخرى، أو يمضون قيلولة طويلة في أوقات الظهيرة الحارقة.

"انظروا،" قلتُ، "لا يمكنكم أن تحكموا بلداً من خمسة وعشرين مليون إنسان، من دون عمل جاد. يعمل مجلس الحكم ساعات أقلّ في الأسبوع مما تقوم به سلطة التحالف المؤقتة في يوم واحد."

كان الأعضاء يجلسون حول طاولة عريضة، يحدّقون بي بكلّ استغراب. التفتَ البعضُ إلى إبراهيم الجعفري. وبدا هو شديد الحيرة.

إن الرئاسة الدورية للمجلس قد أعاقت فعاليته إلى حد كبير. لكنّ ذلك كان حلاً وسطاً لا بد منه، حين تشكّل المجلس في تموز. إذ لم يستطع الأعضاء الاتفاق حول زعيم واحد بعينه، وعوضاً عن ذلك، وعبر خط متعرّج من المحاكمة العقلية- الذي يرمز إلى الانقسام الطائفي داخل الهيئة، وداخل العراق نفسه- انتهى بنا المطاف إلى اقتراح رئاسة دورية يتناوب خلالها تسعة أعضاء شغل المنصب.

كانوا قد اتفقوا، أصلاً، على تشكيل هيئة تنفيذية، من خمسة أعضاء، تتألّف من ثلاثة شيعة، وسنيّ واحد، وكردي واحد. كان هذا يسمح للشيعة بالحفاظ على الأغلبية، التي تمثّل مركز اهتمامهم، في حين يُعطى السّنة والأكراد التمثيل المتساوي. على أية حال، لم يستطع الزعيمان الكرديان، برزاني وطالباني، الاتفاق فيما بينهما عمن سيشغل المقعد الكردي. وطالبا، بالتالي، أن يحتلّ كل منهما، مكانه في رئاسة المجلس. هذا بدوره حرّك مطلباً لدى السنة العرب للحصول على مقعد ثان، لكي يتساوى ثقلهم مع الأكراد. عند هذه النقطة، أصر الشيعة على أن يملكوا أغلبية في الرئاسة، كما هو عليه حالهم في مجلس الحكم. وعنى هذا أن يرتفع عدد الشيعة إلى أربعة أعضاء، وبالتالي تصبح الرئاسة مؤلفة من ثمانية أعضاء. ولكن كيف يمكن الخروج من المأزق؟ أُضيفَ شيعيٌ آخر، وبالتالي ارتفع عدد الأعضاء إلى تسعة غير قادرين على العمل- ما اصطلح على تسميته (P9)، أو رئاسة التسعة، ليُضاف هذا إلى حساء الأبجدية في بغداد.

> اتصل كلاي في وقت متأخّر من تلك الليلة، ليخبرني أنه عندما أذاعت محطة تلفزيون التحالف أنباء مقتل الشقيقين، انطلقت العيارات النارية في كل المدن العراقية، احتفالاً بالخبر. "إنها ورقة جيدة، يا بريمر!" قال الرئيس بوش، منهياً ملخّص خطتنا الاستراتيجية. كان يجلس على رأس الطاولة، في القاعة المخصّصة في البيت الأبيض، خلال اجتماع مجلس الأمن القومي، في اليوم التالي. "قامت جماعتُك بعمل صعب بما فيه الكفاية."

يتبع